

استراتيجية البشير الإبراهيمي لتعريب التعليم

د. يوسف ولد النبية،

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر

ملخص

سلّطنا الضوء في هذه الورقة البحثية على استراتيجية الشيخ البشير الإبراهيمي لتعريب التعليم، من خلال رسالته إلى "مؤتمر التعريب بالرباط سنة 1961". وقد كانت قراءتنا لهذه الرسالة في ضوء اللسانيات التعليمية. وقد تناولنا في هذه الورقة أربعة عناصر؛ أما العنصر الأول فتضمّن الحديث عن مفهومي التعريب والتعليم في اللغة والاصطلاح، معرّجين على حركة التعريب قديما وحديثا، ذاكرين أهمية اللغة الأم في تلقي العلوم والمعارف. وأما العنصر الثاني فتحدثنا فيه عن مفهوم التعريب عند البشير الإبراهيمي بشقيه: التعريب الجزئي الذي هو تعريب الألسنة والأقلام، ويدخل فيه تعريب الدروس التعليمية، والتعريب الكلي الذي يشمل هذا، ويشمل التخلق بأخلاق العرب. وأما العنصر الثالث فناقشنا فيه قضية تعريب التعليم عند البشير الإبراهيمي، من خلال المراحل التعليمية الثلاثة: المرحلة الابتدائية، وهي مرحلة التكوين اللغوي، والمرحلة الثانوية، وهي المرحلة التي ننمي فيها ملكات التلاميذ ونقويها، والمرحلة الجامعية، وهي المرحلة التي يتم فيها تعريب التلميذ على أكمل وجه. وأما العنصر الرابع فعرضنا فيه لمفهوم التعريب الكلي عند الإبراهيمي، ويتمثل في تعريب الثقافة بمفهومها الواسع.

الكلمات المفتاحية: التعريب الجزئي، التعريب الكلي، اللغة الأم، تعريب التعليم، تعريب الثقافة، مرحلة التكوين اللغوي، تعريب الدروس، الملكة العربية..

تمهيد

لقد تنبّه الجزائريون -على غرار أشقائهم العرب- إلى قضية التعريب منذ فجر الاستقلال، على الرغم من الصعوبات التي كانت تعترض سبيلهم؛ منها التركيبة الثقيلة التي خلّفها الاستعمار، المتمثلة في فرنسة الألسنة والتعليم والإدارة وما إلى ذلك، ومنها المفرضون أنفسهم الذين رضعوا لبن اللغة الفرنسية فكراً وثقافة، ولم يبغيوا عنها جَوْلاً، حتى وإن كَلّف ذلك إزاحة العربية عن طريقها، ومنها نقص المتخصصين -آنذاك- وضعفهم في عملية التعريب.

وقد كان العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1889-1965م) في مقدمة المهتمين بقضية التعريب في الجزائر بخاصة، وفي المغرب العربي بعامة، باعتباره مصلحاً اجتماعياً ودينياً ما فتئ يردد ويجسّد شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: "الإسلامُ دينُنا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا" قبل الاستقلال وبعده.

من هذا المنطلق، آثرنا أن نسلط الضوء في هذه الورقة البحثية على استراتيجية الشيخ البشير الإبراهيمي لتعريب التعليم، من خلال رسالته إلى "مؤتمر التعريب بالرباط سنة 1961". محاولين الإجابة على السؤال الآتي: هل تتفق استراتيجية الشيخ البشير الإبراهيمي لتعريب التعليم مع المنجزات التي حققتها اللسانيات التعليمية؛ سواء من حيث إعداد المعلم، أو وضع المقرر، أو اختيار المادة اللغوية وطرائق تدريسها؟

1- التعريب والتعليم

يدلّ التعريب في اللغة على معنيين رئيسين؛ الأول: جعل الإنسان عربي اللسان، والثاني: نطق كلمة أعجمية بحروف وأوزان عربية (سندس، إبريق..)، وقد ذكر ابن منظور المعنيين حينما قال: "وعرّبه: علّمه العربية... وتعريب الاسم الأعجمي: أن تتفوّه به العرب على منهاجها؛ تقول: عربّته العرب، وأعرّبه أيضا". (ابن منظور، ب ت: 589/1)

ويمتدّ عمر التعريب في التاريخ العربي الإسلامي إلى أزيد من ألف سنة، وذلك حينما قام عبد الملك بن مروان في الثلث الأخير من القرن الأول الهجري بحركة تعريب إدارات الدولة. وقد ترتب على ذلك أن تعرّبت السنة الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام بشكل أوسع من ذي قبل.

وتُعَدّ سياسة التعريب التي تبنتها المجتمعات العربية الحديثة -حكومات وشعوبا- غداة الاستقلال مطلبا مشروعا تغذيه دوافع متعددة؛ أولها ديني، يتمثل في ارتباط اللغة العربية بالإسلام ارتباطا لا يقبل انفصالا. وثانيها قومي، ابْتُغِيَ من ورائه بعث القومية العربية. وثالثها موضوعي، يتجلى في عبقرية اللغة العربية واتساعها للعلم، ويؤهلها في ذلك خصائصها المتأصلة فيها كالاتساق والنحت والترادف والاشتراك اللفظي وغير ذلك مما هو مقرر في كتب فقه اللغة.

ويعدّ قطاع التعليم من أهم القطاعات التي عُنِيَ بها المشتغلون في حقل التعريب؛ لأنه أساس كل نهضة. ومعنى تعريب التعليم جعله باللغة العربية. ويُقصد به التحوّل من تدريس المواد كالرياضيات والطبيعيات التي تُدرّس باللغات الأجنبية إلى تدريسها باللغة العربية، التي هي اللغة الأم بالنسبة إلينا. على أنّ هناك من الباحثين من يفرّق بين لغة التعليم التي ينبغي أن تكون باللغة الأمّ، ولغة التعلم التي يفترض أن تكون بلغة العلم المراد تحصيله، بقوله:

أما العلوم فهي ثابتة الأصل وتنتقل بلغة ناقلها ومستخدمها، فالطب في الصين بالغة الصينية، وفي ألمانيا باللغة الألمانية.. وهذا هو التعليم، لكن النمو والتقدم العلمي يستلزم قدرة في التمكن من لغة أجنبية شائعة في ربوع المعرفة كحال العربية في العصر الوسيط، والإنجليزية في عصرنا، وعن طريق التمكن من هذه اللغة الأجنبية تكون القدرة على استيعاب المعلومات، وسرعة نقلها من اللغة الأجنبية إلى اللغة الوطنية، وهذا هو التعلم. (الناوي م، 2003م: 33) ولأهمية التعليم باللغة الأم، أوصى خبراء منظمة اليونسكو، في تقرير أعدوه، باستخدام اللغة الأم في التعليم لأعلى مرحلة ممكنة. وشدد التقرير على ضرورة تعليم التلاميذ في المراحل المدرسية الأولى بلغتهم الوطنية، لأنهم يفهمون تلك اللغة ويتقنونها أكثر من غيرها. (م، ن: 32)

ويرجع فهم المتعلم وإتقانه للغة الأم إلى العاطفة التي ينبّه السلوكيون على أهميتها في اكتساب اللغة الأم. وعليه؛ فقد أدت تجارب العالم السلوكي "ماورر Mowrer" مع "الأطفال الذين يتعلمون لغة الأهل إلى النظرية الآلية، أو نظرية رضاء الذات، فلقد اعتقد أن الطفل يشعر بدفع عاطفي اتجاه أمه التي يسمع منها الكلمات لأول مرة". (شمس الدين ج، "ب ت": 107/1)

ومن الناحية العملية، يتبين دور اللغة الأم في تلقي المعارف واستيعابها بيسر، فحينما يقرأ العربي كتابا بلغته الأم ينحصر مجهوده في فهم المعاني التي تنقلها العبارات، أما قراءته لكتاب أجنبي فإنها تتطلب منه مجهودا مزدوجا؛ إذ عليه أن يفهم اللفظ والتركيب، قبل أن يبدأ في استيعاب المعنى، وإذا فشل في المهمة الأولى خرج بمعنى مغلوط أو لم يخرج بشيء. (جرار ع، 2004م: 104)

وانطلاقا مما تقدم، نزع أن التعليم باللغة الأم لا يقف عائقا أمام التقدم العلمي للشعوب، لأن الإبداع مرتبط بعقل الإنسان أكثر مما هو مرتبط باللسان، وهذا الزعم يثبتته الواقع اليوم؛ فتقدم دول جنوب شرق آسيا كالصين

واليابان وكوريا ارتبطت بلغاتها الأصلية لا باللغات الأوروبية كالإنجليزية والفرنسية. وفي المقابل نجد كثيرا من دول إفريقيا وأمريكا اللاتينية متخلفة على الرغم من ارتباطها باللغات الأوروبية! ولعلّ هذه المفارقة تنبّه إلى إعادة النظر في مسألة ارتباط العلوم بلغة بعينها بحيث لا يمكن الفصل بينهما، وإلى أنه بالإمكان إبدال اللغة الأجنبية باللغة الأم في تدريس العلوم، وإن كنا لا نفعل أهمية اللغات الحية في تقريب المسافة بين المتعلم والعلوم المكتوبة بتلك اللغات.

2- مفهوم التعريب عند البشير الإبراهيمي

لقد صدّر الإبراهيمي رسالته إلى "مؤتمر التعريب بالرباط" بسؤال افتراضي طرحه على نفسه: "وقلت في نفسي: وما حاجتنا إلى التعريب ونحن عرب؟ فقالت لي: ما أحوجكم إلى من يطبعكم طبعاً عربياً منقحاً مصحّحاً، بعد أن طبعكم الاستعمار هذه الطبعة المشوّهة الزائفة". (الإبراهيمي ب، 2007: 205) والسؤال الذي طرحه الإبراهيمي مشروع، ويستمد مشروعيته من العروبة المتأصلة في عموم الجزائريين. فحينما نستنطق التاريخ "يجيبنا بأن العربية كانت هي اللغة الرسمية للدولة الجزائرية والشعب الجزائري معا، قبيل الاحتلال الفرنسي. ومن آياتنا على ذلك أنّ الأمير عبد القادر، وهو رئيس هذه الدولة أيام حرب المقاومة أثناء القرن الماضي، كان عربياً، بل لم يكن عربياً فحسب، ولكنه كان شاعراً وأديباً حفظت لنا الأيام كثيراً من قصائده الشعرية". (مرتاض ع، 1983: 19) بل إذا رجعنا إلى عهود أبعد من ذلك، كمعهد الموحّدين والرسّامين والزيانيين، وجدنا أنّ العربية كانت لغة الدنيا والدين في تلك العهود.

وعلى هذا الأساس، "فالتعريب هو إذن تصحيح للوضع اللغوي المفتعل الذي خلّفه النظام الاستعماري وبالتالي فهو جزء لا يتجزأ من معركة التحرير

الوطني الكبرى، كما أنه تصميم لوضع لغوي سليم يجب أن يستجيب لرغبات الشعب العميقة". (مهري ع، 1971: 6)

على أنه من المؤسف أنّ ذلك الوضع اللغوي المفتعل قد حمته طائفة "فرونكوفونية" في كل من الجزائر وتونس والمغرب، وفي هذا الشأن يقول الإبراهيمي: "قد وصلت فرنسا إلى بعض غاياتها في بعض أبنائنا الذين حصلوا حظا من الفرنسية في كل من الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، فأصبحوا يعتقدون أنها قاصرة (يقصد العربية) عن أداء المعاني العالمية في الفلسفة وجميع العلوم العقلية والنفسية والصناعية، يلوون ألسنتهم بهذا في مجالسهم الخاصة والعامّة، ويلوح لسامعهم أنّ أحاديثهم تشف عن إعجاب بالفرنسية وتعريض بالعربية، وإنّ هذا وحده لغميزة في عروبتهم ووطنيتهم ودينهم". (الإبراهيمي ب، 2007: 205)

ولاريب في أنّ إعجاب تلك الطائفة بالفرنسية، وتعريضها بالعربية، هو امتداد لمزاعم روجها بعض الغربيين، الذي رأى "أنّ النظر إلى التعريب بوصفه عودة إلى الوصف اللغوي والثقافي الذي كان سائدا قبل الاستعمار هو بالطبع مجرد سراب" (جان كالفي ل، 2009م: 122) وامتد زعمه إلى أنّه يوجد في المغرب العربي لغة القرآن الكريم التي هي لغة ميتة، مثل اللاتينية، التي تُتعلّم أساسا لقراءة الكتاب المقدس، ومن جهة أخرى هناك العربية الحديثة؛ لغة وسائل الإعلام وجهاز الدولة، التي يقول عنها "غرانيوم" أنها تخلو من مرجعية ثقافية خاصة بها، كما أنها ليست بلغة أحد في الحياة اليومية! (جان كالفي ل، 2009م: 124)

ولسنا بحاجة في هذا المقام إلى تفنيد هذا الزعم، ويكفي أن نقول: شتّان بين لغة (العربية) حاملة للوحي، الذي تعهّد الله بالحفظ، حافظت على خصائصها منذ أزيد من ألف سنة ونصف، وتفاعلت مع مختلف الثقافات والحضارات في مختلف العصور، وما زال الرّهان معقودا عليها إلى أن يشاء

الله، ولغة (اللاتينية) تغلبت عليها لهجاتها المتفرعة عنها، فصارت تلك اللهجات لغات فيما بعد كالإيطالية والفرنسية والإسبانية، وبقيت هي حبيسة المعابد! تبدأ عملية التعريب عند الإبراهيمي أولا وأساسا بتعريب لسان الجزائريّ الذي علّقت به الفرنسية حيناً من الدهر، ولا يتمّ هذا إلا بتعريب التعليم، الذي هو نواة كلّ تعريب، وقد اصطلح عليه الإبراهيمي بالتعريب الجزئي، الذي هو مقدمة للتعريب الكلي والشامل، المتمثل في التخلق بأخلاق العرب الماثورة عنهم.

وقد توسّع الإبراهيمي في مفهوم التعريب فقال: "التعريب جعل الشيء عربياً سواء كان معنى أو مادة أو إنساناً". (الإبراهيمي ب، 2007: 205) وهو "نوعان: نوع جزئي ونوع كلي، فالتعريب الجزئي هو تعريب الألسنة والأقلام وآثارهما من خطابة، وكتابة، ويدخل فيه تعريب الدروس التعليمية، والثاني يشمل هذا، ويشمل التخلق بأخلاق العرب والتحلي بكل ما اشتهر عنهم من محامد وفضائل". (م، ن: 210)

وقد نوّه الإبراهيمي بجهود المشاركة في التعريب، وخصّ بالذكر السوريين الذين ما أن خرجوا من التسلط التركي حتى كانت كتب التربية والتعليم على اختلاف فروعه جاهزة باللسان العربي، وكذلك كتب الطب والصيدلة والحقوق، دون أن يغفل جهود المصريين من خلال مجمّعهم اللغوي في تعريب الألفاظ والمصطلحات العلمية. (م، ن: 210، 211) وعلى الطريقة نفسها جرى مجمّعاً بغداد وعمّان من بعد.

من هنا يتبيّن أنّ حركة التعريب عند البشير الإبراهيمي بخاصة، وعند الجزائريين والمغاربة بعامّة، ما هي إلا امتداد لحركة التعريب في المشرق العربي، إذ إنّ القضية واحدة؛ وهي ردّ الاعتبار للغة العربية التي أقصاها الاستعمار الأوروبي من الحياة المدنية في الوطن العربي ما يربو على القرن،

بعدما كانت لغة الدين والدنيا معا في عصورها الذهبية. ويتبين أيضا مدى اطلاع الإبراهيمي الواسع على شؤون المشرق العربي؛ سواء من خلال رحلاته المتعددة أو رسائله الكتابية.

3- تعريب التعليم عند البشير الإبراهيمي

لقد وضع الإبراهيمي في رسالته المذكورة خطة علمية عملية تهدف إلى تعريب التعليم بعمامة، وإلى تعليمية اللغة العربية بخاصة، بدءا من المرحلة الابتدائية، فالثانوية، فالجامعية. وتقوم هذه الخطة على مبدأ التدرج في التلقين، والانتقائية في المواضيع، والشمولية في الرؤية. وهذه استراتيجية لتتّم عن عمق فكر، وبعد نظر.

أ- المرحلة الابتدائية

ركز الإبراهيمي في رسالته على المرحلة الابتدائية التي وصفها بمرحلة التكوين اللغوي، وهي المرحلة التي يجب أن تُدخل فيها متن اللغة على طريقة ابن سيدة في "المخصّص"، الذي يُعنى بترتيب الألفاظ اللغوية على المعاني لا على الحروف الهجائية، وعلى طريقة الكتب المصغرة، كـ "كفاية المتحفظ" للأجداي، و"الألفاظ الكتابية" للهمذاني. ويبدأ التلميذ فيها في معرفة أسماء أعضاء جسمه، ومعرفة ما هو منسوب إليها من أعمال، وكل ما هو متصل بها، ثم يتدرج إلى معرفة الأشياء المتصلة به مما يقع تحت نظره ويدخل في تصرفاته اليومية. (الإبراهيمي ب، 2007: 211، 212)

ويندرج متن اللغة -على النحو الذي ذكره الإبراهيمي- ضمن ما يسمى في علم الدلالة الحديث بـ "نظرية الحقول الدلالية"، والحقول الدلالي semantic field أو الحقول المعجمي lexical field "هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها. مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية. فهي تقع تحت المصطلح العام (لون) وتضم ألفاظا مثل: أحمر-

أزرق - أصفر...". (مختار عمر أ، 1998: 79) ويعتمد أصحاب هذه النظرية على فكرة أنّ "المعاني لا توجد في الذهن منعزلة، بل بينها ترابط ملحوظ". (داود م، 2001: 186)

ونستخلص من هذا، أنّ علماءنا العرب القدامى وإن لم يصطلحوا على صنيعهم ذاك -أي: وضعهم لمعاجم المعاني- بما اصطلح عليه الغرب حديثاً، فإنهم قد تنبهوا لهذا الأمر في وقت مبكر، ووضعوا فيه مصنفات، كما صنع ابن فارس في "الصاحبي في فقه اللغة"، والشعالبي في "فقه اللغة وسرّ العربية". ويذكر الإبراهيمي أنه "من العجيب أنّ التعليم الأوروبي اليوم يسلك في تعليم اللغات مسلوكاً قريباً من طريقة الأجدايي والهمذاني". (الإبراهيمي ب، 2007: 212) وفي هذا المناط، ينبّه عبده الراجحي على أهمية الحقل الدلالي في تعليمية اللغة العربية، مركزاً على درجة شيوع الألفاظ، وعلى كيفية استعمالها بما يلائم الموقف، يقول: "والحقّ أنّ دراسة كل لفظة إنما هي دراسة "شبكة" من علاقات المعنى؛ أي: أننا في الحق لا نعرف المعنى الكامل للفظ ما إلا بعد أن نعرف معنى الألفاظ التي تدخل معها في علاقات دلالية. وفي تعليم اللغة لا نبتغي من وراء دراسة الشيوخ معرفة أنّ لفظة ما "مقبولة" دلالياً، وإنما لكي نعرف "كيف نستعملها" أي نعرف كيف تكون "ملائمة" للموقف... ولنضرب مثلاً على ذلك بكلمات مثل: روضة، حديقة، بستان، جنة، جنينة. فأيّ هذه الكلمات نختار للصف الأول الابتدائي، وأيّها نختار بعد ذلك؟ من الواضح أنّ ذلك لا يمكن أن يكون عشوائياً وإلا سقط تعليم اللغة في الاضطراب". (الراجحي ع، 1995: 41، 42)

ويشدد الإبراهيمي في هذه المرحلة على مسألتين تبدوان في غاية الأهمية؛ أما الأولى فتتمثل في "حمل التلامذة على التكلم بالعربية الفصحى ما داموا في المدرسة، وندرجهم على الكلمات السهلة، ثم الجمل الفصيحة، ثم التراكيب الجارية على القوانين العربية". وأما الثانية فـ"أن لا ينطلق المعلمون

أمامهم بكلمة أعجمية حتى لا تخذش ملكاتهم، فإنّ كلمة واحدة تفسد كلّ عمل". (الإبراهيمي ب، 2007، 212)

وترتبط هاتان المسألتان ارتباطا وثيقا بالسليقة اللغوية، التي لا تنمو إلا في البيئة الأصلية للغة. لذلك على متعلم اللغة الأم -واللغة الثانية أيضا- أن يعيش أجواء تلك اللغة التي يتعلمها، فلا ينطق أو يسمع صوتا غير صوتها. وعليه؛ فإنّ معلم العربية الفصحى ومتعلمها يستويان في التكلم بها داخل المدرسة، وإنّ أيّ تقصير من أحدهما في ذلك لمّا يفسد عملية تعليم اللغة وتعلمها على السواء. ولا يقتصر عيب المعلمين على نطق كلمة أعجمية أثناء تدريسهم للغة العربية فحسب، بل يضاف إلى ذلك استخدام العامية في تدريسها، وهي ظاهرة -للأسف- ملحوظة في وقتنا هذا. وفي هذا الصدد يرى عبد السلام المسدي أنّ المربيّ أو المعلم أو المحاضر ما إن يعتمد إلى تعرية لغته من بنائها النحوي الكامل، وما إن يجنح إلى اللهجة العامية متوسلا بها لشرح أو تحليل أو استنباط حتى ينخرط في مشروع تفتيت أمّ المرجعيات وهي اللغة القومية التي عليها مدار كل هوية حضارية. (المسدي ع، 2002م: 249)

ولم يغفل الإبراهيمي الحديث عن تكوين المعلم في العربية تكوينا يؤهله لأداء مهمّته، وعن وضع كتب موافقة لمنهاج التعريب، قال: "إنّ أكبر عقبة تلقانا في هذا الطور هي تعريب المعلم، فيجب أن نحاط لها وألا نُكلّ تعريب أبنائنا إلى معلم غير معرّب، ونحن نتوقع أن تقع في هذه النقطة فيما يشبه الدور، ولكننا نستطيع الانفكاك عنه بحزم الحكومات، وإدراك النفقات". وذلك "بتأليف الكتب الابتدائية ووضعها على ما يوافق منهاج التعريب". (الإبراهيمي ب، 2007: 214)

ويدخل حديث الإبراهيمي عن "إعداد المعلم والمنهاج" معا في صلب اللسانيات التعليمية التي تُعنى بوضع الأساليب والإجراءات التي من شأنها أن تحوّل الحقائق العلمية المجردة إلى واقع عملي؛ يتمثل في إعداد المعلم وتكوينه

معرفيا وتربويا، ووضع المنهاج أو المقرّر التعليمي الذي يُعنى بالمحتوى، والأهداف، وطرائق التدريس، والوسائل التعليمية، وما إلى ذلك.

ب-المرحلة الثانوية

في هذه المرحلة "توسع لهم في القواعد والتراكيب التي تقوي ملكاتهم وتمييزها، ونتسائل قليلا في إدخال الألفاظ الأعجمية في علوم الطب والكيمياء وسائر العلوم الكونية... وأن يُمرّنوا على الخطابة ويُكلّفوا بإلقاء محاضرات قصيرة تُتقن لها الألفاظ والتراكيب، وأن تُفرض عليهم مطالعة كتب مختارة... وأن لا تكثر عليهم حصص اللغات الأجنبية حتى لا تتصادم اللغات في أذهانهم فينشأوا ضعافا في الكل". (م، ن: 213)

ونستشف من قول الإبراهيمي "توسع لهم في القواعد والتراكيب" أنّ النحو لا يُدرّس دفعة واحدة، وإنما يُتدرّج فيه بحسب قدرات المتعلم واستعداده العقلي. ويتفق هذا مع ما تذهب إليه اللسانيات التعليمية، في أنّ اختيار المواد النحوية ينبغي أن يكون وفق معايير موضوعية، كالشيوخ، والتوزيع، وقابلية المتعلم للاستدعاء؛ "إذ ليست كل البنى النحوية متساوية من حيث الشيوخ، ولا من حيث التوزيع، ولا من حيث قابلية التعلم والتعليم. هناك بنى بسيطة، وأخرى مركّبة، وهناك بنى مركّبة لا يستغني عنها الاستعمال اللغوي، وأخرى هامشية وهكذا". (الراجعي، 1995: 71)

وقد تفهم الإبراهيمي مسألة التساهل في إدخال ألفاظ أعجمية في علوم الطب والكيمياء وغيرهما، فهذا أمر ليس منه بُدّ. ونحن نرى أنّ الفائدة تتعمم أكثر إذا جمعنا بين نطق اللفظ الأعجمي على أصله، ونطقه معربا، من باب تعريف التلميذ بأصل الكلمة المعربة.

كما ركز الإبراهيمي في قوله المتقدم على أمرين عمليين مهمين في تعليمية اللغة؛ أولهما "تمرين الطالب على الخطابة"، وهو شكل من أشكال

التعبير الشفهي الذي يُعدّ صورة حيّة للغة المنطوقة، يعبرّ من خلاله المتعلم عمّا يجول في نفسه من مشاعر، وعمّا يختمر في عقله من أفكار، ويستثمر فيه ما تلقاه من ألفاظ وتراكيب وقواعد نحوية وصرفية وصوتية. وثانيهما "مطالعة كتب مختارة"، التي تفتح المجال للمتعلم لممارسة نشاطه الذاتي، لتحصيل اللغة والفكر معا.

ج-المرحلة الجامعية

في هذه المرحلة "تكون الملكة العربية قد استحكمت في التلميذ وتمّ (تعريبه) على أكمل وجه، فإذا توسع في اللغات الأجنبية فلا يخشى عليه انتكاس ولا تراجع... فلا تزاخمه لغة أخرى مهما توسع في أصولها وفروعها، ولأنّ أفكاره وتصوراتهِ الذهنية أصبحت كلها عربية، يملك تصويرها والتعبير عنها باللغة العربية بسهولة". (الإبراهيمي ب، 2007: 213)

ومع أنّ الإبراهيمي قد رأى أنّ التوسّع في اللغات الأجنبية إنما يكون في المرحلة الجامعية، فإنّ هذا الأمر لم تجر عليه العادة في المنظومات التربوية العربية والغربية الحديثة، التي ترى أنّ المرحلة الأنسب لتعليم اللغات الأجنبية هي المرحلة الابتدائية (كتعليم الفرنسية في الجزائر، في السنة الثالثة ابتدائي)، في حين تكون سنّ المتعلم في المرحلة الجامعية متأخرة نسبيا، ومن ثمة يكون إتقانه للغة الأجنبية في هذه المرحلة من الصعوبة بمكان.

وفي هذا السياق ذهب "لينيبيرج Lenneberg" سنة 1964 إلى أنّ اكتساب اللغة له "فترة حرجة" يجب أن يتعرض فيها الطفل إلى منبّه لغوي، وإلا فإنه سوف يكون من الصعب عليه تعلمها على أكمل وجه، وافترض أن هذا السن هو سن الثانية عشرة، بينما أوصل آخرون ذلك إلى سنّ البلوغ. (الدامغ خ، 2011: 763)

وعلى الرغم من أنّ دراسات اكتساب اللغة بدأت بتناول اللغة الأمّ وليس اللغة الثانية، إلا أنّ نظرياتهم تم تبنيها ودراستها من العلماء المهتمين بتعلم اللغة

الثانية بما فيها وجود "الفترة الحرجة"، ويميلون إلى الاعتقاد بأنه كلما كان السن أصغر كان تعلم اللغة الثانية أفضل وأسرع معتمدين على تفوق عقل المتعلم الأقل سناً. (م، ن: 764)

على أنّ الذي جعل الإبراهيمي يرى تأخير التوسع في اللغات الأجنبية إلى المرحلة الجامعية هو حرصه على أن تصبح أفكار المتعلم وتصوراتها الذهنية كلها عربية، يستطيع التعبير عنها بلغة عربية تكاد تكون تلقائية، وهذا رأي يُحترم على كل حال. ويتضح من هذا أنّ الإبراهيمي كان حريصاً على تعريب اللغة والفكر معاً؛ لأنه قد يحدث أن يكون الواحد منا عربيّ اللسان غربيّ الفكر، أو غربيّ اللسان عربيّ الفكر، وكلاهما غير محبّب مما يُفهم من كلام الإبراهيمي.

وفي هذا الشأن حسن قول القائل في تعريب اللغة والفكر معاً: "إننا نريد من التعريب أن ينقل التفكير من اليسار إلى اليمين" إلى تفكير "من اليمين إلى اليسار" فتتسجم الفكرة مع الكلمة المعربة، ويتطابق اللفظ مع المعنى، ويتجاوب المتحدث مع السامع". (فراجي ب، 2004: 10)

ومهما يكن من أمر في مسألة المرحلة الأنسب لتعليم اللغات الأجنبية، فإنّ الذي ينبغي أن لا يُختلف فيه، هو أنّ الطالب في المرحلة الجامعية ينبغي أن لا يكون في منأى عن متابعة البحث العلمي المكتوب باللغة الأجنبية. ويقترح بعض المهتمين بالتعريب "أن تدرس مادة دراسية رئيسة واحدة بلغة أجنبية حية في كل سنة دراسية جامعية، ويكون الامتحان بتلك اللغة، مع إلزام الطالب برصد المصطلح الأجنبي وحفظه في حقل اختصاصه، إضافة للمصطلح العربي، ضماناً لمواكبة التقدم العلمي والمتابعة العلمية". (المناي م، 2003م: 32)

4- التعريب الكلّي عند الإبراهيمي

لا تكتمل صورة التعريب عند الإبراهيمي إلا إذا تعرّبت الأخلاق والعادات والتقاليد، و"هو التعريب الشامل النافع وهو غاية الغايات لكل عامل مخلص للعروبة. فلا يتم تمامه بالعلم وحده، وإن بلغنا فيه عنان السماء، فالعلم لا يفيد إذا لم تصحبه في كل خطوة تربية نفسية على شمائل العرب وهممهم، وبطولتهم، ووفائهم، وصدقهم في القول... وقد قال تعالى في وظيفة الرسول (وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) فقدّم التزكية التي هي التربية على تعليم الكتابة والعلم". (الإبراهيمي ب، 2007: 214، 215)

والتعريب الكلي مسؤولية كبيرة تتقاسمها أطراف مختلفة؛ إذ "يجب أن تقوم به جماعات من خطباء المساجد ومن الوعاظ، ومن حملة الأقلام العربية المسلمة، فيتواطأوا جميعا على نغمة واحدة وهي أن الإسلام عربّ جميع معتنقيه بالانتساب إليه، وأن كل من تكلم العربية فهو عربي". (م، ن، ص 215) ويظهر جليا أنّ الإبراهيمي رأى أنّ العربية والإسلام شيء واحد لا يقبل التقسيم؛ فالعربية لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، وعلوم الشريعة، ولا مندوحة لمن يريد أن يتفقه في الدين الإسلامي عن دراستها. ويظهر أيضا من كلامه أنّ العربية لا تعادي أحدا قد طلبها، فمن تكلم العربية فهو عربي. فإذا تم لنا التعريب بنوعيه؛ الجزئي والكلي نكون قد وجدنا من تقوم بهم مصلحتنا العامة كالمعلم والخطيب والطبيب والمحامي والفنان والقاضي والجندي عربا بلسانهم وشمائلهم وأخلاقهم. (م، ن: 215)

وقد ختم الإبراهيمي رسالته بحاجة العرب إلى تعريب اللسان والإنسان معا، وهي دعوة منه لتعريب الثقافة بمفهومها الواسع، قال: "نحن معشر العرب أصبحنا في حاجة ملحة إلى التعريب في كل علائقنا بالحياة فنحن بحاجة إلى تعريب ألسنتنا وأفكارنا وعقولنا... وأكاد أقول: ولباسنا ونعالنا وأساليب

معاشنا، وهيئات أكلنا وشربنا ونومنا، وأثاث بيوتنا، فقد عمّ حياتنا كلها المسخ والقلب، ورمانا الاستعمار بالناقرة وهي فساد الأخلاق فينا". (م، ن: 215) وبهذا يكون التعريب الكلي خطوة نحو الوحدة العربية التي نشدها الإبراهيمي ومن سار في ركبته. فالرابطة اللغوية -كما يقول المسدي- أقوى من الرابطة السياسية، ويكفي أن نتبين كيف انفلتت كيانات سياسية كان يُظنّ أنها التحمت بمجرد انصهارها في سياق الدولة السياسية، مثل ما حصل في يوغسلافيا وفي تشيكوسلوفاكيا وفي الاتحاد السوفياتي. وأما الشاهد المضاد الذي يبرهن على أنّ السياسة والاقتصاد أضعف من الثقافة المتجانسة ومن اللغة المشتركة فهو توحّد ألمانيا يوم سقط جدار برلين. (المسدي، ع، 2002م: 243، 244)

خاتمة

لقد تبين من خلال هذا العرض، أنّ نظرة الإبراهيمي للتعريب نظرة شاملة متكاملة؛ جمعت بين تعريب اللسان نطقا وكتابة، وتعريب الإنسان أخلاقا وثقافة. وقد كانت استراتيجيته لتعريب التعليم التي عرضناها دليلا هاديا لسياسة التعريب التي انتهجتها الجزائر بعد الاستقلال.

ومن منظور تعليمية اللغة، خلصنا إلى أنّ خطة الإبراهيمي المقترحة لتدريس اللغة العربية علمية عملية، تتفق إلى حدّ كبير مع المنجزات التي حققتها اللسانيات التطبيقية بعامة، واللسانيات التعليمية بخاصة؛ سواء من حيث إعداد المعلم، أو وضع المقرّر وتحديد الهدف منه، أو اختيار المادة اللغوية وطرائق تدريسها. وعلى ذلك فإنّ الأخذ بخطة الإبراهيمي المقترحة لتدريس اللغة العربية في المراحل التعليمية المختلفة ذو فائدة عظيمة النفع.

المصادر والمراجع

- 1- ابن منظور، محمد، (ب، ت): لسان العرب، بيروت، دار صادر

- 2- أحمد مختار، عمر، 1998م: علم الدلالة، ط5، القاهرة، عالم الكتب
- 3- الإبراهيمي، البشير، 2007م: في قلب المعركة، الجزائر، دار الأمة
- 4- فراحي، بويكري، 2004م: الترجمة، التعريب والمصطلح، وهران، دار الغرب
- 5- شمس الدين، جلال: (ب،ت) علم اللغة النفسي، مناهجه، نظرياته، قضاياها، الاسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية
- 6- الدامخ، خالد بن عبد العزيز، 2011م: السنّ الأنسب للبدء بتدريس اللغات الأجنبية في التعليم الحكومي، مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، ع1 و2
- 7- جرار، عادل أحمد، 1425هـ/2004م: تعريب العلوم، ط1، عمّان، دار الضياء
- 8- مهري، عبد الحميد، شوال 1391هـ/1971م: التعريب شرط للثورة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، مجلة الأصالة، ع5، الجزائر
- 9- المسدي، عبد السلام، 1423هـ/2002م: أفاق تطوير اللغة العربية في التعليم العام، ندوة منظمة الإيسيسكو: اللغة العربية إلى أين؟ الرباط
- 10- مرتاض، عبد الملك، 1983م: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
- 11- الراجحي، عبده، 1995م: علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار المعرفة الجامعية
- 12- جان كالفي، لويس 1430هـ/2009م: السياسات اللغوية، ترجمة محمد يحياتن، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف
- 13- داود، محمد محمد، 2001م: العربية وعلم اللغة الحديث، القاهرة، دار غريب
- 14- المناوي، محمود فوزي، 1424هـ/2003م: أزمة التعريب، ط1، القاهرة، الأهرام

Résumé

la stratégie du cheikh El Bachir El Ibrahimi sur la question de l'arabisation de l'enseignement

Dans cet article, Nous avons tenté de mettre en exergue la stratégie du cheikh El Bachir El Ibrahimi sur la question de l'arabisation de l'enseignement, à travers sa lettre adressée à la conférence de l'arabisation tenue à Rabat en 1961. Notre lecture de cette lettre est de point de vue purement didactique de la langue. Nous avons essayé d'aborder la question à travers quatre éléments: le premier met en exergue la définition des concepts liés à l'arabisation et celui de l'enseignement, tout on mettant en exergue les différents mouvements anciens et contemporains de l'arabisation mais aussi sur l'importance de la langue maternelle

dans la réception du savoir et de la connaissance. Dans le deuxième volet, nous avons parlé sur le concept de l'arabisation chez Bachir El Ibrahimy dans son côté partiel lié à la langue et celui de l'écriture, ainsi que ayant trait aux leçons didactiques. L'arabisation dans son côté totale qui vise l'enseignement en étroite liaison avec l'éducation arabe. Le troisième volet aborde la question de l'arabisation de l'enseignement à travers ses trois étapes: primaire, avec la formation linguistique; secondaire qui renforce les compétences linguistique des élèves; ainsi que l'étape universitaire qui complète définitivement l'arabisation de l'étudiant. Le quatrième volet se focalise autour de l'arabisation dans toute sa plénitude chez El Bachir El Ibrahimy notamment celle de la culture au sens large du mot.

Mots clés

l'arabisation partielle- l'arabisation totale - la langue maternelle - l'arabisation de l'enseignement - l'arabisation de la culture - l'arabisation des leçons - l'étape de la formation linguistique - la compétence... □